مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies)
جامعة وهران02/ المجلد 12ع 01. 16/ 01/ 2023
ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

العلمانية في المناخ الفكري العربي- سؤال النشأة-

Secularism in the Arab intellectual climate - the question of growing up -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة باتنة-1-	فلسفة	د. وفاء برتيمة DR. [*] Wafa Berrtima philowafa25@gmail. com

DOI :10.46315/1714-012-001-005

الإرسال: 2021/01/13 القبول: 2021/06/06 النشر: 2023/01/16

ملخص: وضحت هذه الدراسة أن العلمانية تحتل كفكرة ومشروع عالمي اهتمام الخطابات العربية المعاصرة وإن تباينت من حيث المواقف التي تسأل في إمكانية وحدود تداول الحل العلماني لواقعنا المتأزم، فهي لا تؤكد إلا رهان واحد هو أن مستقبل الإسلام في خطر حسب المكيال الإيديولوجي الغربي لأن العلمانية في جوهرها هي إيديولوجيا تحييد المقدس، بيدا أن الأصوات المطالبة بالحضور العلماني وتوطينه في العالم العربي كمنفذ للتحرر ومبدأ للتعايش حجتها في ذلك مقتضيات الضرورة الحضارية؛ وذلك بأخذ منحنيات هندسية وفق منطق "هيغل" لتخلق معها ثنائيات متقابلة تقوض بعضها في صراع دائري مستمر من أجل التفكيك والإزاحة في تضاد شمولي مستمر الجدل.

كلمات مفتاحية: تحييد؛ امبريالية؛ إعدام المقدس؛ مركزية؛ المادية.

Abstract:

This study showed that secularism occupies as an idea and a global project the interest of contemporary Arab discourses ،although it differs in terms of the positions that question the possibility and limits of the circulation of the secular solution to our crisis reality ،it confirms only one bet is that the future of Islam is in danger according to the Western idioce's irons because secularism is essentially the ideology of neutralizing the sacred ،but the voices demanding secular presence and its settlement in the Arab world as an outlet for liberation and the principle of coexistence are based on the necessity of civilization; To create opposite pairs that undermine each other in an ongoing circular struggle for disassembly and displacement in an ongoing totalitarian conflict.

Keywords: Neutralization ؛imperialism؛sacred execution ؛centralization ؛materialism.

[*] - وفاء برتيمة: philowafa25@gmail. com

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

1مقدمة

تبرز أهمية العلمانية في المرحلة الراهنة من حياتنا بروزا كبيرا في حقل السجال الفلسفي والسياسي، فالعلمانية تمثل مرحلة تاريخية، وتعد مدخلا ضروريا للنهضة والتنوير والحداثة، بناء على الاستخدام المطلق للعقل المتحرر من قبضة الموروث؛ والذي يسلم بالوعي الإجرائي بعيدا عن كل المتاهات، متجاوزة لحدود الواقع أو ما يعرف بالسلطة المتعالية. لكن بين ما تدعو إليه العلمانية من حرية وقطيعة مع السلف وتقديم العلم والتكنولوجيا بديل عن قيم المقدس؛ يبرز في الكفة المقابلة عالم لا يزال مريض بمسائل التأويل ومسألة صلاحية التراث من عدمه وأفق أسلمة المعرفة، ألا وهو عالمنا العربي الذي استنكر شقه الأكبر المشروع العلماني ووصفه بالتكفير الدخيل واللا مشروع، خاصة في محاولات نشرها وتوفير مداخل لنشأتها في الأوساط الفكرية العربية كإيديولوجيا وحل لهموم العالم العربي، ولعل الأصوليات المعاصرة اليوم من ماضوية وصراطية وغيرها ما هي إلا رد فعل معاكس لميلاد التيارات العلمانية في عالمنا العربي خصيصا الموجة الحالية، لذلك تحامل الكثير على ظاهرة العلمانية ووصفوها بالإرهاب القيمي والمشروع الصهيوني العالمي، وحددوا هدفها المركزي في إسقاط وحدة وتماسك الدين الإسلامي بالذات؛ كونها مؤامرة ضد مقومات الهوية وخطر يعصف بمعايير الإنسانية والأخلاق .وأمام المفارقة التي وقعت فيها العلمانية، بين ما تدعو إليه من مستقبل عامر بقيم الديمقراطية والعدالة الإنسانية وبين ما هو حاصل ومعاش من اختراقات إنسانية بالجملة في ظل الفكر العلماني، ناهيك عن زحزحة الإنسان من المركز القيمي والوجودي وإلغاء مبدأ الثنائيات، إلى اعتباره وسيلة واختزاله في البعد الأحادي المادي، من هذا الاضطراب الواقعي تتمشكل عقدة بحثنا في مشكلة الدراسة الآتية:

ما هي عوامل نشأة العلمانية في المناخ الفكري العربي: هل هي مجاورة لطبيعة تفكيره أم متجاوزة له؟ هل تشكل العلمانية في مقاصدها ضرورة حضارية لتقدم وتعايش الشعوب أم أنها أداة استعمارية مبطنة موجهة لهدم المرجعيات القيمية وطمس الهوية الثقافية والإنسانية؟

تتمركز القيمة العلمية للدراسة في محاولة الكشف عن أبعاد الصراع الفكري الإيديولوجي إزاء المشروع العلماني والوقوف على أسباب التشاحن بين التيارات الفكرية المتكالبة داخل البيئة العربية، وما مدى صحتها النقدية: هل العلمانية تقوض الإيمانية فعلا أم تحفظها؟

لقد انخرط العالم العربي منذ أزيد من قرنين من الزمن أيضا في متتالية التحديث وعلى أصعدة مختلفة، محاولا بناء ما يتطلبه الشرع والعقل؛ وفقا لمتطلبات تتجاوز حتمية الإكراه والقسر من خلال دمج الثقافات وتوحيد الأزمنة، وإعادة تأسيس المرجعيات والأصول بالتجديد، وفي هذه

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الدائرة وجب إعادة النظر في علاقة السياسي بالديني، وعلاقة - المقدس - بالتاريخ في أبعاده المختلفة؛ علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع، حيث يتمفصل السياسي في مستويات مركبة، مستويات تفترض أن مثلها مثل كل حوادث وظواهر التاريخ، مقرونة بكل ثورات المعرفة السياسية والتقنية كما هو حاصل في عالمنا المعاصر.

وفي إطار محاولات غرس الحداثة السياسية العلمانية في واقعنا العربي، نجد من المفكرين العرب من رفض هذه العلمانية شكلا ومضمونا لاسيما شكلها الشمولي، وهناك من تحفظ عليها؛ لذلك فإن منهج الدراسة فرضته طبيعة البحث؛ فقد اعتمدنا المنهج التحليلي من خلال تحليل الأفكار الفلسفية والعلمية والدينية وردود الفعل النقدية تجاهها بين من يرى العلمانية ظاهرة مجاورة للتقدم والتعايش الإنساني وبين من يراها متجاوزة له في مسارها السلبي المتعثر الذي يتجه بنا إلى الهاوية بلغة "ادغار موران".

2. العلمانية في سؤال المعنى:

إن كلمة العلمانية - باعتبارها نتاجا غير عربي الأصل - عرفت عدة تأويلات وإحالات، تختلف من فهم لأخر حسب طبيعة كل حقل مرجعي لغوي أو معرفي، وهذا ما أدى إلى تعدد تعريفاتها اللغوية، والاصطلاحية، فهي: «تختلف مفاهيمها باختلاف المجتمعات ونظمها» (الحاج، ك، 2000، ص201).

وعليه يكون لفظ العلمانية (بفتح العين) هي العبارة الصحيحة ويتضح ذلك من خلال التعريف الذي أوردته دائرة المعارف البريطانية أن مادة "*Secularism*": «هي حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف توجه الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها...، وهي حركة مضادة للدين، ومضادة للمسيحية» (زوزو، م، ع، 1992، ص177)، ومنه العلمانية" ترجمة غير دقيقة لكلمة "*Sécularité*" بالفرنسية و"*Secularisme*" بالإنجليزية (زوزو، م، ع، 1992، ص177)، المشتقة من الكلمة اللاتينية "*Saéculum*"، في حين نجد الدكتور "عبد المنعم الحفني"، أورد في معجمه الشامل لمصطلحات الفلسفة أنه ربما يكون اشتقاق "علمانية": « (بكسر العين) من العلم فقد قام التنوير على العلم» (الحفني، ع، ا، 2000، ص262)، أي علم الدنيا وليس علم الدين؛ علم التنظيم والفعل، وليس علم التأويل والغيب. ويؤكد هذا الموقف أيضا "غريغوار حداد" حيث يقول: «العلمانية بفتح العين متفرعة من العلم، وكلمة العالم أعطت أولا علمانية التي اختصرت فيما بعد إلى كلمة علمانية...» (حداد، غ، 1980، ص18). في حين العلمانية عند "محمد عمارة" هي: «نسبة غير قاسية إلى العالم بفتح -العين- أو إلى العالمية والعلمانية هو الذي يتبناها فرد أو

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

جماعة، ولقد نشأت العلمانية وصيغة كمقابل لـ"المقدس" بمعنى الكنسي، وليس مقابل لـ "الدنس" كمقابل لخارق الطبيعة، فهي إذن كل ما هو ديني وكهنوتي، على النحو الذي عرفته أوروبا في عصورها الوسطى المظلمة». وهكذا يتم الاجتماع في هذا الوضع بأن العلمانية تقرأ بفتح العين لا بكسرها، ونسبت العلمانية إلى العالم لا إلى العلم في هذا السياق يقول "عادل الظاهر" «أن العلمانية لفظة مشتقة من العالم، وليس من العلم، والطريقة الصحيحة للنطق فهي فتح حرفي العين واللام معا» (الظاهر، ع، 1998، ص37).

إن المتقصي لمسيرة هذا المصطلح يدرك بوضوح جلي، أنه استخدم أول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عاماً عام (1648) عند توقيع صلح – ستفاليا- وظهور الدولة القومية، في حين هناك من يرد ظهورها إلى حادثة إعدام "الملك لويس السادس عشر" "LouisXVI" عام (1792) إبان الثورة الفرنسية، مما أدى إلى تحقيق الفصل القانوني بين الكنيسة والدولة.

1. 2. العلمانية المبادئ والتجليات:

صار مفهوم العلمانية يقوم على جملة اقتراحات أهمها:

- الإيمان يتقدم في المجتمعات البشرية، وقياسها بمعايير علمانية)، بحيث إن هذه الأخيرة التي لا تتجاوز مجال المصلحة البشرية الزمنية كافية لتفسير تاريخ البشرية في تنظيم شؤونهم؛ أي أن العلمانية من شأنها تحقيق الكمال للبشرية بصورة غير محدودة.

- الاعتقاد بأن القول بوجود الحقيقة الموضوعية في دراسة التاريخ والمجتمع البشري قول ملئ بالمعنى، وأن الذكاء وحسن النية يمكن أن يرتقيا إلى مستوى من الحياد، لا يحد منه الشذوذ الشخصي أو المركز الاجتماعي أو الوضع التاريخي، وبذلك يكون التقدم في علم الاجتماع ذو إمكانية موضوعية، ويتوقع من مثل هذا التقدم أن يعطي الإنسان قدرة متزايدة للسيطرة على مصيره.

- قيام العلمانية على الواقع والحواس لا على الروحانيات والقوى الخارقة (النعيمي، أ، ن، 2014، ص132)، والعلمانية عند "محمد أركون": «ليست فقط موقفا من الدنيا بل من قضية المعرفة، والعلمانية الفلسفية ليست الكفر، إنما بحث عن المعرفة يدخل فيه الدين أيضا، وتقول بالدين وتبحث فيه بحثا عميقا، ولا تقصد هدمه البتة» (أركون، م، 1986، ص13)، فالعلمانية إذن حسب "محمد أركون" قطعة ذات وجهين -سلبي/إيجابي، يقوم على مقولات الحداثة كالحرية والديمقراطية والتقدم. وهكذا تكون العلمانية هي ذلك الإطار الفضفاض الشديد الاتساع؛ يمكن أن يحتوي بداخله على شتى المواقف السياسية لإيدولوجيا الطريق الذي ينبغي أن تسير فيه.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

من جهة أخرى نجد "برهان غليون" في كتابه "نقد السياسة" يقدم العلمانية على أنها علمنة أي أنهما شيء واحد بالترادف، يقول: «إن العلمنة لا تفترض، ولم تفترض في أي مكان فصل الدين عن السياسية، أو تعارضه بين قيمها، فقيم السياسة لا يمكن أن تصدر عن شيء آخر غير معتقدات المجتمع وإيمانه، وإلا أصبحت السياسة نفيا لهويته الوطنية، إنما التمييز بين مهام رجال الدين ومهام رجال الدولة، وهم جميعاً يخضعون من حيث المبدأ أو المفروض أنهم يخضعون في مجتمع سيد للقيم ذاتها والأهداف والتربية والتكوين العام الجماعي والقومي ذاته، أي أنه فصل بين صلاحيات لا بين أنماط قيم وعيش» (غليون، ب، 1991، ص122)، في حين يعرفها "ساطع الحصري" بأنها: «الدعوة إلى مدينة القوانين، والمؤسسات» (الحصري، س، 1964، ص96)، بمعنى بناء القوانين والمؤسسات على أسس لا دينية.

من خلال المفهوم الاصطلاحي للعلمانية نجد أن الترجمة الاصطلاحية القريبة من الصحة للفظ العلمانية هو "اللادينية" أو "الدينوية"، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب؛ ومنه العلمانية هي حياد الدولة تجاه كل دين، وهي أيضا النظام الذي يضع حاجزا فاصلا بين الروحي والزمني، ونقيض العلماني: «الإكليركي» (قطب، ع، ا، 1990، ص83)، ولكن الفهم السائد للعلمانية هو الفهم الذي يعرفها بأغراضها المعروفة خصوصا لدى الغرب والمتمثلة في: «التخلص من هيمنة الكنيسة على شؤون السياسة، وتحرير السلطة السياسية من كل مؤثر مباشر أو غير مباشر» (ظاهر، ع، ص 38).

وهكذا نجد أن العلمانية كمصطلح له أصل غربي، وليس أصل عربي فهو دخيل وليس له صلة بتربة الفكر العربي من جهة تركيبة المصطلح المعقدة، غير أن "المسيري" يخالف هذه الرؤية ويرى أن العلمانية: «هي مذهب منظومة التحديث والحداثة وجوهرها، فالعلمانية هي ميتافيزيقا الحلول التي تمثل الأساس الجوهري لكل إدراك فكر علماني» (المسيري، ع، ا، 2002، ص82)، إن ما يقصد إليه "المسيري" هو أن العلمانية تعبر عن حالة من الوعي والثقافة، وبما أنها تمثل أساس عملية التحديث والحداثة، فإنها ترتطم أو تتعارض مع النمط المعرفي الإسلامي، لأنها تكشف عن تحيزات لا أخلاقية مادية، ودليل ذلك الإعلام وسيطرة منطق الإغراء والإباحية التي تفصل الإنسان عن قيمه العقلية، ومرجعيته الدينية.

نلاحظ مما سبق تحليله أن العلمانية هي: «الابن المدلل لمنظومة التحديث و يجتهد "المسيري" من خلال استخدامه نموذج توليدي في نقد ودارسة الحضارة الغربية في نموذجها العلماني بالذات، ويقدم تعريفا وظيفيا للعلمانية بقوله: «رؤية معرفية إمبريالية ترمي إلى غزو العالم

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

بحوسلة الوجود الإنساني إلى مجرد وسائل، وإجراءات قابلة للحساب والضبط الكمي» (المسيري، ع، ا، 2002، ص103)، وهذا لا يتم دفعة واحدة لأن العلمنة في جوهرها تتم عبر متتالية في حراكها التاريخي، الذي يثبت أنها متتالية نموذجية، تتحقق مرحليا وتدريجيا بمنحى تصاعدي مستمر، وكل مرحلة لها خصوصية، تختلف عن الأخرى من حيث القوة، وشدة التأثير، ودرجة الامتداد، مما يعني تحول المطلق الإنساني إلى أبعاد جامدة خالية من الروح، لصالح القوى المادية المطلقة، والمهيمنة على كل البنى الاجتماعية والاقتصادية، يقول "المسيري" في هذا الصدد: «لأول مرة في تاريخ الإنسان يلغى الهدف والغاية، ويتحرر المطلق منهما فيصبح اللوغوس "بلا تيلوس" وميتافيزيقا بلا أخلاقيات» (المسيري، ع، ا، 2002، ص73)، مما يؤكد لنا أن الحضارة الغربية بصورتها الحداثية ومضمونها العلماني هي حضارة المتناقضات، تبدأ بالوعي وتخالف الوعي أو الفعل، لممارستها السلطوية والمركزية الاختزالية الواحدية، التي تلغي الثنائية ومبدأ الاعتدال الكوني، لأن العلمانية في بدايات النشأة ربطها البعض بالعلم ربطاً مطلقا، على أساس إيمانها بالمنطق الوضعي والتجربة الواقعية والابتعاد عن الماورائيات فـ"عزيز العظمة" يرى أن: «العلمانية رديفا طبيعيا للروح العلم والتقدم المتصاعد» (العظمة، ع، 1992، ص22)، وهذا نوعا من التفريغ الضمني لمصطلح علمانية من الجوانب الدينية، بحيث تصبح رؤية دنيوية مادية، وضعية تقدم المنفعة الآنية والذاتية بعيدا عن مقاصد العالم الأخروي، فالعلمانية حسب "المسيري" هي: «الابن المدلل لمنظومة التحديث والحداثة» (المسيري، ع، ا، 2006، ص334).

2. 2. أي علاقة بين العلمانية والعلمنة؟

من خلال عرضنا للمدلول اللغوي والاصطلاحي للعلمانية، صادفنا مصطلح العلمنة؛ فكثيرا ما نقرأ مصطلح "العلمانية" ومصطلح "العلمنة"، لكننا لا ندرك إن كان مسمى واحد أم ثمة فرق بينهما: فأين يكمن هذا الفرق؟ وما طبيعته إن وجد؟، وما حدوده نسبية أم مطلقة؟

إن العلمانية: «هي نظرية أو حركة نشأت وتطورت في السباق التاريخي للصراع بين الكنيسة والدولة القومية في أوروبا، للفصل بين الدين والدولة وبين مفاهيم الكنيسة، والمفاهيم العلمية الحديثة عن الكون، والحياة والمجتمع« (الحاج، ك، 2000، ص 373)، ومنه فإن العلمانية بهذا المعنى هي الجانب النظري، أما العلمنة فهي: «التطبيق العلمي لتلك النظرية في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي...، وهي تعني اللاديني على وجه الدقة، وتكتفي بنفي أي دور الإله أو الدين في تنظيم شؤون المجتمع...، فالعلمنة بمعناها الشامل فلسفة تنطوي على محاولة لأدراك العالم المادي، بوصفه معقولا وإمكانية إدراكه، وبالتالي تغييره دون الحاجة للقوى الفوقية،

والسماوية والدينية» (الحاج، ك، 2000، ص373)، إذا فالعلمنة تمثل الجانب التطبيقي للعلمانية؛ إن ما يفهم من هذا التحليل أن طبيعة العلاقة بينهما هي علاقة احتواء الأم للابن، وبتالي تسقط كل الحدود بينهما، لأن علاقتهما هي علاقة الجزء بالكل، والعكس الصحيح لأنهما من طبيعة واحدة – مادية-، وأن الفرق بينهما فرق درجة – العلمانية ظاهرة متحققة – العلمنة – أداة أو وسيلة التحقق - وليس فرق غاية أو وظيفة، فعلاقتهما مطلقة لاستكمال صورة المشروع العلماني المطلق والشمولي.

3. عوامل تو افد العلمانية في العالم العربي الإسلامي:

سيطرت المفاهيم الدينية المتداولة في العصور الوسطى الأوروبية لتحول اهتمام الناس إلى الآخرة على حساب الدنيا، كما كان لها أثرها في التسلط الكنسي الذي شكل المناخ الحقيقي لنشأة العلمانية ونموها في المجتمعات الأوروبية المسيحية، حيث قامت هذه العلمانية على مبدأ الفصل بين الديني والدنيوي أو الزمني والروحي، أو المدني والعقائدي بوجه عام، وفي المقابل نجد أن الثقافة الإسلامية لم تعرف تلك المفاهيم التي تحمل الناس على التوجه للآخرة والعزوف عن الدنيا، لأن الجمع المتوازن بينهما يعد من خصائص الإسلام (البشري، ط، 1992، ص13).

فالتحري عن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ظهور العلمانية في العالم العربي والإسلامي وتبنيها كنموذج نهضوي بديل عن التراث العقيم، يكمن في أن تأخر الدولة الإسلامية وانحطاطها في الآونة الأخيرة، حدث بسبب الانحراف عن فهم الإسلام وانحصار مفاهيمه التصورية في معاني ضيقة ومدلولات محدودة كالرجعية، الأصولية، الماضوية، الصراطية، هذا ما أدى إلى الوهن الذي أصاب الأمة الإسلامية، وأدى إلى نكوص مسارها التطوري الحضاري، إضافة إلى جمود المجال العلمي العام، الذي هيمن عليها في عصر كانت أوربا فيه قد تحررت من قيود الماضي نحو العلم والاكتشاف، وهذا الضعف المادي والمعنوي جعل العالم الإسلامي لقمة سائغة لدى الغرب، فـ«انحراف المسلمين - وذلك بجهلهم لحقيقة دينهم وسنة الله في الحياة، وعجزهم عن مسايرة الحياة - كان المنفذ الرئيسي لتسرب العلمانية إلى العالم الإسلامي» (الحوالي، س، ع، ا، 1998، ص62)، هذا ما يعني أن انكباب المسلمين على تقليد العلوم الغربية، ومناهجها الحداثية دون مراعاة ما يتلاءم مع طبيعة مجتمعاتهم وأصولها، كان سببا في أزمتهم التي بدت متأرجحة بين الأصالة المموهة والمعاصرة المفرطة، فهذا الانفتاح على ثقافة الغرب من أجل اللحاق به ومواكبة الثورة العلمية، والصناعية والتكنولوجية جعلهم يفكرون في وضع الجوانب العقائدية والدينية جانبا، أي مفصولة عن ممارساتهم الحياتية في الجوانب الأخرى.

مع نهاية الحرب العالمية الأولى 11 نوفمبر (1918) دخل العالم كله مرحلة جديدة، ودخلت معه البلاد العربية والإسلامية مرحلة لم تعهدها من قبل في تاريخها، فلم تكن النتيجة الواضحة لانتهاء تلك الحرب بانتصار إنجلترا وحلفائها عن الألمان بل كانت النتيجة الحقيقية، هي حلول الدولة السوفياتية الاشتراكية محل – إمبراطورية روسيا القيصرية-، فهذه المتغيرات تعد أثقل وأهم عامل أدى إلى تغير موازين القوى السياسية والإستراتيجية في العالم الغربي، وعالم الشمال بما فيه من دول كروسيا وآسيا وأمريكا ممتدا ليشمل قارة أوروبا بأسرها.

يقول "فؤاد زكريا": «أن الجماهير الإسلامية تعرف التحديث والعلمنة بفطرتها وتنبذها» (زكرياء، ف، 1995، ص 171)، ومنه فالمد العلماني مرتبط بزيف المبدأ الكنسي الذي عمق العداء بين الطبقات الاجتماعية في أوربا، والتي كانت مهدا للفكر العلماني: «يرتبط ارتباطا عضويا بالظروف الخاصة التي مرت بمجتمع معين، ومن ثمة فمن الخطأ الفادح اقتلاعها من تربتها الأصلية، وزرعها في تربة أخرى لم تكن في أي وقت مهيأة لاستقبالها، أو مضطرة إلى الأخذ بها» (طعيمة، ص، 1984، ص34)، وهكذا فإن الفلاسفة والأدباء الجدد اضطروا لمواجهة سلطة الكنيسة بوصفها عقبة في وجه التقدم، في حين الإسلام لم يعرف مؤسسة دينية مماثلة للمؤسسة الدينية البابوية الكاثوليكية، وهذا أمر طبيعي يرد لطبيعة كل دين، وتمضي الجهة الشائعة في تنفيذ العلمانية، فتقول إن العلمانية كانت ضرورة أساسية من ضرورات تقدم المجتمع الأوروبي، غير أن العالم الإسلامي لم يشهد شيئا من تلك الأوضاع التي جعلت العلمانية ضرورة محتومة في أوروبا، كما أن الأسباب التي جعلت العلمانية مرحلة ضرورية في التاريخ الأوروبي، لا وجود لها في التاريخ السابق أو المعاصر حسب هؤلاء، وعندئذ تصبح الدعوة إلى العلمانية في العالم الإسلامي المعاصر محاكاة للغرب على غير أساس، ويمكن الحكم على أصحابها بأنهم: «منبهرون بالغرب دون أن يتعمقوا في طبيعة مجتمعهم» (العميم، ع، 1999، ص72)؛ وبطبيعة الحال فإلى جانب القرون الأربعة التي تفصل بين الفترتين، هناك اختلاف هائل بين الأسس التي قام عليها كل من المجتمعين، ومن هنا فمن المتوقع ومن الطبيعي أن نجد اختلافا واضحا بين وضع القائمين على أمور الدين في كلا المجتمعين ربما لكنه كان ولا يزال يضم: «سلطة دينية قوية مسموعة الكلمة مرهوبة الجانب، هذه السلطة يرعى شؤونها ويسهر على حمايتها رجال متخصصين في أمور الدين، ولها في الكثير من الأحيان سلطة على الأجهزة التنفيذية في الدولة» (زكرياء، ف، 1995، ص29)، فالأزهر على سبيل المثال مؤسسة دينية، وتراعي الأحكام المدنية، في حين يرى "الجابري" إن عملية فصل الدين عن الدولة عندنا مصطنعة ومنقولة من الغرب فمشكلة الدولة عند المجتمع الغربي؛ هي بالضبط أنها

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

بلا دين ولا عقيدة، ففصل الدين عن الدولة هي طرف من الدولة في حد ذاته، فبينما كانت العلمانية الغربية حسب "الجابري": «فلسفة الثورة ضد الطبقة السائدة المتعلقة بشكل أو بأخر بالكنيسة، ووعاء الأفكار التحررية كالمساواة والعدالة، جاءت العلمانية الغربية كوسيلة لتقوية النظم السياسي القائم على تقوية الطبقة المسيطرة» (الجابري، م، 1986، ص68).

إذا كانت العلمانية قد نشأت حقا في ظروف عصر النهضة الأوروبية، فما الذي يمنع أن تكون من حيث المبدأ، قابلة للتطبيق في ظروف أخرى؟ ذلك لأن أولئك الذين يتصورون أنها: «مجرد نتاج مباشر لتمرد الأوروبيين على مواقف كنيستهم الكاثوليكية في العصور الوسطى، يغفلون جوهر العلمانية ويتعلقون بقشورها» (زكرياء، ف، 1995، ص91)، فالعلمانية لم تكن رافضة للدين؛ بدليل أن الدين لم يختف من أوروبا والغرب بأكمله بعد أربعة قرون من إتباع المبادئ العلمانية في كافة الميادين، وإنما كانت العلمانية رافضة لأسلوب معين في التفكير، كان يتمسك به رجال الدين في ذلك العصر وقد اختار العرب: «استلهام مدينتهم الفاضلة من الغرب، من أجل الوصول إلى تحرر إرادة بلاده من سيطرة الحكم الإسلامي، لكن دون رفضه رفضا كليا، لا أقول إنه معارض للإسلام، ولكني أقول أنه يتبنى معايير الاحتكام الغربية، ويرتسم الأنساق الاجتماعية الغربية، ويقدرها ويجري محاكاتها في التنفيذ، وذلك كله بعيد عن معايير الشرعية الإسلامية، ومعايير الاحتكام المتصلة بها» (البشري، ط، 1992، ص 30)، و منه لابد لنا من توضيح سمات العلمانية في الفكر العربي المعاصر من خلال التمييز بين مرحلتين للعلمانية في عالمنا العربي الحديث، أي العلمانية التي ظهرت في زمن الصدمة الحضارية مع الغرب، والثانية علمانية العصر الحاضر أعني الربع الأخير من القرن العشرين.

4. مراحل نشأة العلمانية في العالم العربي والإسلامي:

1.4. المرحلة الأولى [العلمانية القديمة]:

لقد تركت الحملة الفرنسية عند الكثير من المفكرين العرب، نزوعا إلى مجاراة الحضارة الغربية واعتبارها النموذج الأمثل للنهضة، إيمانا بعجز ثقافتهم القومية على إدراك واستيعاب ما يجري من تحولات علمية وحضارية كبيرة، وولدت لديهم الرغبة في الاندماج في الحضارة الغربية أو على الأقل النسج على منوالها في الثقافة والسياسة، والاجتماع والاقتصاد. وكانت الحملة الفرنسية أول فرصة اكتشف من خلالها المسلمين الهوة الحضارية السحيقة بينهم وبين الغرب، ولذلك يعتبرها بعض المفكرين بمثابة الصدمة الحضارية التي دفعت العرب إلى التفكير من جديد في ضرورة تحقيق النهضة.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

تعود بداية التيار العلماني في الفكر العربي إلى مفكرين مسيحيين أمثال "شبلي شميل" و"يعقوب صروف" و"فرح أنطوان"، وكلهم يتفقون على أن العلمانية ضرورة حضارية، ويؤكدون على ضرورة فصل الدين عن الدولة، وأن الدين لله والوطن للمجتمع. والملاحظ أنهم كلهم كانوا من النصارى، وغالبيتهم من نصارى الشام، اللذين كان ولاؤهم الحضاري للغرب، لا ينتسبون إلى الإسلام دينا أو حضارة وتربوا في المدارس الأجنبية وفي إرساليات، فكان الأسهل في دعوتهم الصادقة للتقدم والنهوض بالبلاد أخذ النمط الغربي، الذي عرفوه ودعوا إليه، ورأوه ماثلا في تقدم الغرب الفعلي (حنفي، ح، الجابري، م، 1990، ص 43)، ولعل ما نستنتجه في هذا الإطار هو دور العلم الأوروبي في صياغة الأفكار العلمانية لهؤلاء المفكرين، وهذا ما سيتضح من خلال النموذجين التاليين:

"شبلي شميل" (1850-1917) الذي يعتقد أن كل الأشياء تتكون من المادة بشكل عفوي وستبقى للأزل، وقانونها الثابت هو التطور، والإنسان هو أعلى سلم هذا التطور، وهو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يحقق السيطرة على العالم الخارجي ويغير ظروفه وينظر إلى العلم على أنه دين الإنسانية الجديد الذي سيقهر في نظره كل العقائد الأخرى: « كما يرفض الحكم الديني، لأنه لا يحقق المساواة بين الناس، ويقف عائقا أمام نمو العقل الإنساني نموا صحيحا، كما يرفض الحكم الاستبدادي، لأنه لا يعتر ف بحقوق الأفراد» (الحوراني، آ، 1988، ص 299)، معنى هذا أن مصدر الاثنين خاطئ باعتبارهما يقومان على تفضيل المصلحة الشخصية على المصلحة العامة، كما أنهما يشجعان على بقاء العقل في حالة جمود وركود، بالإضافة إلى هشاشة الحكم الديني حسب "شميل"، وهذا ما يساهم مساهمة فعالة في إبقاء المجتمعات ضعيفة، والأمم تقوى بنفس المقدار الذي يضعف به الدين، لذلك فالمطلوب هو القضاء على سلطة رجال الدين، وإحداث ثورة على سلطة – الاكليروس- المسيطرة على المجتمع، على غرار ما حدث في أوروبا التي لم تصبح قوية ومتدينة إلا عندما حطم الإصلاح (إصلاح لوثر كينج).

في حين "فرح أنطوان" (1874-1922)عرف بتمييزه بين الدين والعلم، فمدار الحياة العلمية هو العقل الذي يستند إلى الملاحظة والتجربة، أما الدين فمداره القلب الذي يتقبل الحقائق دون استدلال كما أكد ضرورة فصل السلطة الزمنية والسلطة الروحية، وذلك لاختلافهما في الغاية: «فالدين يبتغي العبادة والتدين، أما السلطة الزمنية فتبتغي الحرية ومنفعة الأفراد» (عبد اللطيف، ك، 2001، ص131)، هكذا أراد "فرح أنطوان" أن يقوم المجتمع السياسي، وتكون ركيزته الأساسية في الحرية والمساواة، وبذلك تجاوز السلطة الدينية وإحلال محلها السلطة الزمنية

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ناهيك لجهود "سلامة موسى" (1887-1958)، هذه الموجة الفكرية التي حاولت أن تنطلق من حقائق تجمع بين الفكر الإسلامي والفلسفة الغربية على أساس الانفتاح وإمكانية تكييف الفكر التنوير مع ما يخدم تقدم الأمة دون إلغاء القداسة، أي تحييد نسبي وليس مطلقا، حسب ما تقتضيه ضرورة كل مجال حمل لواءها كل من "محمد عبده"، "الأفغاني"، "الكواكبي"... وآخرون من رواد العلمانية المعاصرة العرب، ومنهم بشكل خاص رواد العلمانية العرب المسلمين، "محمد حسين هيكل" (1888م - 1956م)، "إسماعيل مظهر" (1891م- 1962م)، "لطفي السيد" (1872م-1963م)، "فؤاد زكريا"، "محمد أركون"، "هشام جعيط" وغيرهم، وهؤلاء كلهم تعدى فكرهم العلماني ليصل أو يمس عدة مجالات تجاوزت حتى الدين كعنصر هام وضروري، فمن أهم الكتب التي دعت إلى تبني العلمانية الغربية نجد (الإسلام وأصول الحكم) كتاب لصاحبه "علي عبد الرازق" 1925م، ومن هنا فإن هذا الاتجاه – العلماني - ظهر في الوطن العربي حوالي- ق 19 م-

2.4. سمات المرحلة الأولى من العلمانية في الفكر العربي المعاصر: أنها كانت إيجابية؛ بمعنى أنها تسعى إلى تحقيق هدف حضاري محدد المعالم، وهو بناء مجتمع نموذجي، وأنها كانت مشروع متكامل يستهدف تحديد كل ظروف الحياة على النمط الغربي، أي لا يمكننا أن ننهض بالوطن العربي إلا بما نهض به الغرب، ومن ثمة توسيع أفق الحرية والاحتكام إلى العقل والانتصار إلى العلم ونشر العدل والمساواة.

3.4. المرحلة الثانية [العلمانية المعاصرة]: في ضوء هذا التحديد لسمات العلمانية في مرحلتها المبكرة الأولى نستطيع أن نلمح عن طريقة المقارنة والتضاد السمات المميزة للعلمانية المعاصرة أو المتأخرة، السياق التاريخي عرفت فيه مجتمعاتنا اتجاهات ليبرالية ويسارية وقومية، لكن التيار الذي اجتذب الجموع الكبيرة هو: «التيار الإسلامي واكتسح هذا التيار بقية التيارات، واختطف منها قاعدتها الجماهيرية» (زكرياء، ف، 1992، ص75) من خلال الدعوة إلى شرعية التشريعات الدستورية بمختلف قطاعاتها المحورية والهيكلية: «سرعان ما انتقلت الدعوة إلى الميدان الاقتصادي، فأصبحت تنادي بصيغة المؤسسات الاقتصادية، بالصبغة الإسلامية وتقرن القول بالفعل، وتنشأ البنوك والمصارف الإسلامية، ثم تنتقل بعد ذلك إلى المؤسسات الفكرية والثقافية» (فوده، ف، 1992، ص، ص30، 31)، فأغرقت الأسواق بطوفان من الكتب والمجلات تهدف إلى صقل جيل كامل في قوالبها الخاصة، بل تفرض رقابتها بقوة حتى على الأنشطة الفنية و«تدعوا أنصارها في بعض الأحيان إلى مقاطعة التلفزيون، وتطالب بالزي الإسلامي في الألعاب الرياضية» (فوده، ف، 1992، ص31)، هكذا كان التيار الإسلامي يهدف إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

جميع مجالات الحياة سياسيا واقتصاديا، ثقافيا وفكريا، وحتى رياضيا، بمعنى أن العلمانية المعاصرة مهمتها هي مقاومة التيار الإسلامي الجارف، ولا تستهدف بناء مشروعها الخاص كما كان حال العلمانية في أواخر القرن التاسع عشر، فهي إذن علمانية سلبية تعرف جدا ما لا تريد، ولكنها لا تتوحد حول هدف إيجابي يحدد لها ما تريد.

4. 4. سمات المرحلة الثانية من العلمانية في الفكر العربي المعاصر:

إن العلمانية المعاصرة ذات سمات تميزها بوضوح عن علمانية المرحلة المبكرة فهي لا تكون مشروع متكامل ينافس المشروعات الأخرى للنهضة، إنما تضم في داخلها جماعات شديدة التباين في توجهها الإيديولوجي، خاصة دواليب الصراع مع التيار الإسلامي لأن الحركات الإسلامية المعاصرة تصف بالتطرف والأصولية، والإرهاب والماضوية، أمام هذا الوضع المريب للعلمانية يقول "محمد الغزالي": «مهما تعصبت الوثنية والصليبية والصهيونية ضد الإسلام، فإن الحقائق الكبرى التي أشرق بها هذا الدين لن تستخفي عن العيون، ولن تذيبها الضغائن السود» (الغزالي، م، 1982، ص77).

5. خاتمة:

نخلص بعد ما عالجنه أنفا بالسرد والتحليل والمناقشة إلى نتيجة مفادها: أن العلمانية في المناخ الفكري العربي تتخللها مواقف متباينة منها المتعايشة ومنها المتنافرة على صعيد المسلمات والمبادئ، وذلك كون العلمانية الوافدة إلى عوالمنا العربية عرفت تفاوت في التأويل والترحيب والرفض عبر مسار كرونولوجي متداخل ومشترك الهموم والقضايا ومتباعد المصالح، بسب إيديولوجيا براغماتية تنظر للقلة دون الكل ترجمتها مراحل العلمانية في عالمنا حسب التيار العلماني، وبين مزاعم التمسك بالعلم والتقنية كنوع من الاعتقاد والعبرة للتخلص من الأنظمة الدينية المشيدة. وتبقى العلمانية كالبارود الذي يحرق نفسه دون أن يصيب الهدف المتعالي دوما وفي هذا الصدد يقول "محمد الغزالي": «فمن هنا أنظر إلى العلمانيين على أنهم قسمان: قسم له مقترحات حسنة في الإصلاح، لكنه لا يعرف الشريعة ولا حقيقة الدين الذي ينتمي إليه، فهو يظن أن ما يقترحه ليس من الإسلام أو بعيد عن الإسلام، أو أن الإسلام قد يضيق به، فلو كان واسع الاطلاع لأدرك أن ما يقترحه هو من الإسلام، لكنه ما فكر أو غلبه التيار الثقافي الاستعماري، ونوع لا يدري فعلا أي شيء عن الإسلام كارها الله ورسوله» (نقلا عن قطب، ع، ا، 1990، ص، ص85، 86).

****

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

6. المصادروالمراجع

1. أركون، محمد. (1986). **الإسلام والعلمنة**، مجلة دراسات عربية، ط5، بيروت، دار الطليعة.
2. البشري، طارق. (1992). **مستقبل الحوار العلماني الإسلامي**، ط1، المملكة العربية المتحدة، دار المستقبل.
3. الجابري، محمد عابد. (1986). **الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية**، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
4. الحاج، كميل. (2000). **الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي الاجتماعي** (عربي – إنجليزي)، ط1، لبنان، مكتبة الناشرون.
5. حداد، غريغوار. (1980). **المسيحية والعلمانية**، مجلة مواقف، العدد39، دب، دن.
6. الحصري، ساطع. **(1964). آراء و أبحاث في القومية**، دط، القاهرة، دار المعارف.
7. الحفني، عبد المنعم. (2000). **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفية**، ط3، مكتبة القاهرة، مدبولي.
8. حنفي، حسن والجابري، محمد عابد. (1990). **حوار المشرق والمغرب**، ط1، بيروت، المؤسسة الوطنية للدراسات.
9. الحوالي، سفر عبد الرحمان. (1998). **العلمانية**، ط1، مصر، مكتبة الطليعة.
10. الحوراني. آلبرت. (1988). **الفكر العربي في عصر النهضة**، ط3، دب، دار النهار للنشر.
11. زكرياء فؤاد. (1982). **العلمانية: النشأة والأثر في الشرق والغرب**، دط، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي.
12. زكرياء، فؤاد. (1995). **الإسلام والسياسة**، دط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية.
13. زكرياء، فؤاد. (1995). **العلمانية ضرورة حضارية**، مجلة الإسلام والسياسة، دار موفم للنشر، القاهرة العدد12.
14. شرقاوي، أحمد (1995). **العلمانية بوصفها ايدولوجيا**، مجلة الطريق، دن، لبنان.
15. طعيمة، صابر. (1984). **أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي**، دط، بيروت، دار العالم للكتب.
16. الظاهر عادل. (1998). **الأسس الفلسفية للعلمانية**، دط، القاهرة، دار الساقي.
17. عبد الحميد، قطب. (1990). **محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع**، دط، الجزائر، مكتبة رحاب. .
18. عبد اللطيف، كمال. (2001). **إعادة بناء المجال السياسي في الفكر العربي: قراءة في علمانية فرح أنطوان**، مجلة عالم الفكر، الكويت العدد3، مجلد29

19. العظمة، عزيز. (1992). **العلمانية من منظور مختلف**، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

20. العظمة، عزيز. (1992). **العلمانية من منظور مختلف**، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

21. العميم، علي. (1999). **العلمانية والممانعة الإسلامية محاورات في النهضة والحداثة**، ط1، بيروت، دار الساقي.

22. الغزالي، محمد. (1982). **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية: كتاب الأمة**، ط1، قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.

23. غليون، برهان الدين. (1991). **نقد السياسة: الدولة والدين**، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. .

24. فودة، فرج. (1992). **حوار حول العلمانية**، دط، مراكش، دار تنميل لطباعة والنشر.

25. القرضاوي، يوسف. (1989). **الإسلام والعلمانية وجها لوجه: ردا على فؤاد زكريا وجماعة العلمانيين**، ط2، الجزائر، مكتبة رحاب.

26. محمد، زرزور عدنان. (1992). **القومية والعلمانية**، ط1، الأردن، مؤسسة الرسالة.

27. المسيري، عبد الوهاب. (2002). **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، مج1، ط1، القاهرة، دار الشروق

28. المسيري، عبد الوهاب. (2006). **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، ط، القاهرة، مكتبة الشروق.

29. النعيمي، أحمد نوري. (2014). **تركيا بين الموروث الإسلامي والاتجاه العلماني**، ط1، الأردن، دار زهران للنشر والتوزيع.